

جذور إرهابنا الطب النفسي الإيقاعى التطورى
(من الإبداع الخاص: "ملحمة الرحيل والعود)



yehiatrakhawy@hotmail.com

نشرة "الإنسان" 2018/08/26
السنة الحادية عشرة - العدد: 4012

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر



مقدمة

الحمد لله

هذا هو الفصل الأخير

لعل الرسالة وصلت

فإذا لم تصل أرجو قراءة العمل مجتمعا (مكافأة أو

عقابا)

وكل عام وأنتم بخير

وهذا هو الفصل السابع عشر والأخير

أبو سمبل(1)

-1-

— فرحت بمكالمتك فجئت عدوا.

— أنا التي تأخرت عليك بعد المقابلة الأخيرة.

— ما زلت آخذه على خاطرك منى يا بسمة.

— بالعكس، لم أتصل بك لكننى لم أنس كلامك، وضعتنى فى مأزق مع نفسى:

— أنا لا أستبعد مغالاتى وشطحي كما تعلمين.

— وصلنى ذلك، هذا ما طمأننى:

— تصورى أننى مؤتس بهذا التعارف على هذه الموجة الجديدة، بقدر ما احترمت اختلافنا من

قبل.

— وأنا أيضا، هل أقول لك سرا؟

— كما تشائين.

— بدأت فى كتابة رواية طويلة لأول مرة فى حياتى، لم أكن أكتب إلا القصة القصيرة.

— لا أعرف هل أهنئك أم أشجعك أم أشفق عليك؟

— بل إنها تهكم أنت بالذات.

— أنا لست ناقدا، لا تنس أن الرواية غير القصة القصيرة، نقل خيرى شلبى عن يوسف إدريس

أنه كان يقول عن ذلك إن القصة القصيرة تأتى "هكذا"، ويترقع إصبعه الوسطى مع الإبهام.

— هل تظن أننى لا أعرف ذلك، ألم أقل لك يوم زرنا محمود قريبيك أول مرة إن كاتب القصة

القصيرة أحيانا يجمع آلاف المعلومات ليصوغها فى عبارة واحدة، أو فقرة واحدة من قصته الـ "هكذا"

(قالت ذلك وطرقعت إصبعيها الوسطى مع الإبهام).

سكت جلال فجأة، ونظر في الأرض وتغير وجهه حتى جزعت بسمه.

— ماذا بك يا جلال؟ ماذا حدث؟ هل قلت ما يضيرك؟ لست آسفة، أنا لم أقل شيئا، ماذا بك؟

قل لى:

رفع جلال رأسه ببطء شديد، كان حزينا، وحكى لها الأخبار التي جاءها ليحكيها.

ذلك أن محمودا قد حكم عليه بسجن طويل، لم يشأ أن يعرف كم سنة على وجه التحديد، وذلك بعد

أن ضبط يزرع ثلاثة أفدنة من ستة كلها بانجو، هكذا مرة واحدة، وكأنه أخذ تصريحاً من وزارة

المخدرات، لم يفعل مثلما يفعل الناس الأوعى: لم يزرعه سرا بين زراعات أخرى: لا أحد يدري لم

فعل ذلك؟!.. ”على عينك يا تاجر“، حتى خيل للناس هناك أن زراعة البانجو أصبحت من المحاصيل

المسموح بها قانونا، ضابط كبير، ما زال بعضهم يناديه يا كابتن، والباقون بـ ”يا باشا“ وثلاثة أفدنة

من خمسة، لا من خمسمائة، وتجار ذاهبون عائدون، كان لابد أن ينتهي الأمر إلى ذلك.

كانت بسمه تسمع وهى مذهولة، قالت مرة أو عدة مرات أثناء حكي جلال ”محمود؟!..“، ”غير

معقول..!!؟!.. محمود؟!.. تم: ”غير معقول“؟ محمود؟ هذا غير معقول. وجلال يرد عليها أنه ”الذى

حصل“.

— وأولاده؟

— وائل تأثر كثيرا، لكنه سرعان ما نسى:

— وفتحي؟

— هذه هى مصيبة أخرى، فتحي وقف موقفا لم ينقذه منه إلا ذكاء القاضى وإنسانيته وأبوته،

ذهب فتحي إلى المحكمة وطلب الشهادة، فأذن له القاضى باعتباره شاهد نفى قد يقدم بعض ما يثبت

بطلان الإجراءات كما علمه المحامى، أو أى شئ يساعد على تخفيف الحكم، كان القاضى متعاطفا

تماما، ليس لأن محمودا كان ضابطا، كان قاضيا إنسانا، وإذا بفتحي ينبرى أمام المحكمة يتكلم عن

المخدرات التي تذاغ من الأقمار الصناعية، وأن الكونجرس الأمريكى يتعاطى ويوزع على العالم

أخطر أنواع المخدرات، وأن البانجو أخفها، وقد اعتبر القاضى أن كل كلامه انفعالات من أثر حزنه

على موقف أبيه، ولم يحاول حتى أن يحيله إلى الكشف العقلى خوفا من أن تنتهى محاولة إعفائه من

مسئولية أقواله إلى أن يلقي به وراء الشمس -للعلاج - بلا رجعة.

— لا أملك إلا احترام هذا القاضى:

— فتحي يا بسمه برغم كل هذا الدفاع لم يذق البانجو أصلا، وهو لا يدخن طبعاً، لم يفهم أحد فى

المحكمة ماذا يعنى هذا الشاب بهذه الخطبة، ولا حديثه عن تغيير الوعى بالجمال، والعبادة، ومخدرات

السلطة بالإعلام والأموال.

— هذا الولد!!.. هذا الشاب!!.. هل تعتقد يا جلال أنه يستطيع أن يستمر هكذا. ألا يرجع الفضل فيما

هو هكذا إلى أبيه أيضا؟

— لستُ حكما، لا أقرأ الغيب، لا أعرف. لا أظن، يجوز!!..

— هذا الشاب ابن أبيه أم صوت أبيه؟

— ماذا تعنين؟!..

— لا شئ. أنت تعرف.

— لا أظن. أنا مشغول على فتحي أكثر من انشغالى على أبيه.

— عندك حق، سوف يظنون وراءه، إذا تركه المشايخ ستلحق به رئاسة المباحث، فإن أفلت فلن

يدعه مجلس الأمن، ربنا بستر ولا يلتقطه من يعلمه كيف يكفرُ الناس، ليقتلهم وهو بيتسم فى

طمأنينة اليقين.

— مستحيل.

— لا شئ مستحيل، وحتى إذا أفلت من كل هؤلاء فسوف يجنّ.

— أحسن.

— لا أظن، حتى المجانين لم يعودوا يمثلون اختراقا، البركة فى الأطباء وشركات القمع المنظم.

— لا تذهب بعيدا.

— يبدو أن المسألة أصعب مما نتصور.

-2-

—

— ليس تماما، كانت التجربة صعبة.

— يا سيدتى، لقد تعلمت من أمين وسط الحياة، أكثر مما تعلمت من محمود وهو منسحب.

— يا جلال أنا تعلمت الحياة من مواجهة الموت.

عادت فاتيما أكثر إشراقا وأقل شحوبا، عادت دون أن تتغير، هى هى: حكمت لجلال تجربتها منذ

عرفت طبيعة مرضها، وكيف أنها جزعت مثلما ينبغى أن يجزع أى إنسان حين يبلغه توقيت نهايته،

قالت له إنها فى محاولتها جرد الحساب لما يمكن أن يسمى حياة فيما قضته من أيام، اكتشفت أننا

نخطئ الحسابات أكثر من أى كائن آخر، وأن علاقتنا بالزمن ضعيفة جدا، وأنه لا مفر من أن تمتلئ

كل لحظة بما هى أولى به.

— ما هذا؟ هل يمكن أن يعرف الإنسان أى يوم كان مليئا وأية ساعة كانت خالية؟ إن الزمن يعمل

بنا ما يعمل ونحن نتلقى محصولته بين الحين والحين، لا أكثر، كيف فصّصت الزمن هكذا؟ وما هو

أولى بالوقت وما هو أقل استحقاقا؟.

— نعم، المسألة صعبة تماما لكن مواجهة الموت شئ آخر.

— و أمين؟

لم تفاجأ فاتيما.

— ماله؟

انحرف بالكلام وهو يجاهد ليترد صورة محمود التى اقتحمت وعيه مؤقتا دون استئذان، وقال:

— هل تحبين أمينا؟

— طبعاً.

— أمين يحتاجك يا فاتيما، هو يحتاجنى أيضا، هكذا واجهنى، أنا لا أعرف ماذا أصنع له،

تصورت أنه يفكر أن يتراجع، أن يهدئ قلبا مما يفعل، يخيل إلى أنه من الصعب عليه أن يفعلها وسط

هذه الأكوام من المشاغل، والمشاريع، والمكاسب، والديون، وأسعار العملات، ومضاربات البورصة،

أنا لا أعرف ماذا أصنع له؟

صدحت فى رأسه أغنية قديمة كان يردها طفلا لم يحاول أن يطردها برغم تحويرها. "فاتيما يا

فاتيما، يا مرضعة نبينا"، لم يلاحظ كيف حل اسم فاتيما محل اسم حليلة إلا بعد قليل، نجحت الأغنية

فى أن تمنع كلاما كاد يقفز منه عن محمود، وعن مسألته، كلاما حمد الله أنه أمسك نفسه حتى انصرف

بعد أن قالت له إنها لن تكون فى القاهرة لمدة أسبوع، فهى حين قررت أن تعيش أسبوعا بأسبوع، يوما

بيوم، ساعة بساعة، اكتشفت أن هناك أشياء كثيرة لم تمتلئ بها كما تستحق.

— تصور بعد أكثر من سبعة عشر عاما فى مصر لم أزر "أبو سمبل". سمعت أن الشمس ستتعادم

على وجه رمسيس هذا الأسبوع، سوف أذهب قبل أن يفوت الأوان.

— سوف تعرفين عظمة الهندسة الفلكية عند قدماء المصريين.

— هندسة ماذا؟ وفلكية ماذا؟ إنى ذاهبة لمشاهدة معنى علاقة الإنسان بالكون، حتى لو كان ذلك

ممثلا فى ملك مثل رمسيس، رمسيس كان يعرف أنه سيموت، أرجح أنه أراد أن يذكرنا تمثاله هذا فى

تعامده مع الشمس عن حتمية علاقتنا بالزمن أو بالكون.

— هل تعرفين يا فاتيما، كنت قد وصلت إلى يقين أن "الحياة هى الحل" لكننى الآن يخيل إلى أن

”الموت هو الحل“، أعنى الوعى بالموت، أقصد الموت الحياة، أقصد الولادة... .

— واحده واحده يا جلال، ماذا تقول؟

— أقول ما سمعت، مع أننى لا أعرف ما أقصد، أنا خائف.

— لا لا لا، بعيد الشر عنك، حافظ على نفسك يا جلال، لا تذهب بعيدا، فضل العمى علينا يا جلال

ليس له حدود.

-3-

أمين هو الذى اتصل به، وهو الذى حدد له المكان، واشترط أن يكون هو المضيف هذه المرة، فندق هيلتون رمسيس، جلال لا يطيقه بما يحويه من خليجين، وتجاوزات، وإهانات، وكذب. صوت أمين مختلف، ليس هو، هناك شئ.

كان أمين يبدو متسرعا وكأنه يريد أن ينصرف قبل أن يحضر.

— آسف يا جلال كان ينبغى أن أبلغك هذه الرسالة.

— مالك يا أستاذ أمين، مالك اليوم؟ ولماذا — هنا — بالذات؟

— أنا تعمدت تغيير المكان كما لاحظت، هناك على النيل لا أستطيع أن أقول لك ما سوف أقوله

لك هنا، لكل مكان كلماته.

— على أن أتوقع كلاما مختلفا، بدأت أتخوف؟

— سيحصل، لن أطيل عليك.

— لا تقلقنى أكثر.

— باختصار: تبينت فجأة يا جلال، تقريبا فجأة، أنك على حق، صدقتك رغما عنى:

— أنا على حق؟ فى ماذا؟ أنا الذى تبينت أنك على حق، حساباتك دائما أدق وأصوب.

— أنت على حق يا جلال، أنت الذى على حق. صدقتى:

— حق ماذا؟ وأنا أكاد أشد بحثا عن لقمة العيش، أنا أفعل يا أمين كل ما أكره، الترجمة للمنظمة

تكاد تخنقنى، حق ماذا؟ وهباب ماذا؟

— تبينت فجأة يا جلال، تقريبا فجأة، أن الفائدة الحقيقية، وربما الوحيدة التى يمكن أن تعود

عليك من الثراء الذى يتنامى وحده، هى أن تتمكن من أن يكون عندك وقت تتحرك فيه لك، وأن حياتك

تتوقف على ما تملأ به هذا الوقت بعد كل شئ، بحساباتى التى تصر أنت على ذكر كفايتى فيها، ثبت

لى أننى أكثر الناس فقرا، كلما كسبت أكثر، تقلص حجم الوقت الذى أملكه حتى صار الوقت هو

الذى يملكنى مائة فى المائة، ماذا يتبقى لى آخر النهار؟ لا شئ، وحتى حين أكتشف أن هناك خمس

دقائق خالية، والمفروض أنها لى بعيدا عن كل شئ، أرعب ولا أعرف كيف أنصرف فيها وكأنى

عامل عملة، لقد حسمتها يا جلال. لقد حسمتها .

— حسمت ماذا؟ يا عم أمين، هل هذا كلام؟ طول عمرك تحسم الأمور صح، منذ لم تستسلم

لأوهام أبيك حسب ما ذكرت لى، وها أنت أنجح منه مائة مرة، دع مثل هذا الكلام للشحاذين أمثالى:

ربنا يبارك لك يا رجل. هل تبادلتى؟

ضحك جلال بالعافية، ولم يضحك أمين بل تحرك بالكرسى وطلب الحساب.

فزع جلال وراح يعيد.

— ألهذا طلبت هذا اللقاء؟ كنت حريصا جدا، لقاء عاجل جدا، جئت إليك مهرولا لتقول لى إننى

على حق! وأن ثراءك سرق منك حقه أن يكون عندك وقت تملأه بالهم الذى نحن فيه؟ تصدق بماذا

أننى شخصا كنت أفكر أن أحضر إليك لأعلن لك تنازلى عن موقفى، وعن آرائى ومشاريعى، لأعلن

لك أنك أنت الذى على حق، وما معنى من ذلك إلا أننى اكتشفت أننى بلا موقف أنتازل عنه، ثم تأتى

أنت تقول إننى على حق؟ حق ماذا؟ وهباب ماذا؟ أنا مشغول عليك يا رجل.

نظر أمين فى ساعته، وبدا سخيفا وكأنه يطرد جلالا مع أنه يعتبره ضيفه، فتحمل جلال وقدر

الموقف، وراح يبحث عن شئ يقوله، هل يحدثه عن مقابلته فاتيما، وعن أنها مازالت تحبه مثلما كانت حين تزوجته؟ هل يحدثه عن فكرة الوعي بالموت وهذا الكلام الصعب، وأن هذا يمكن أن يكون بداية أخرى؟ أن يكون مفتاح أشياء كثيرة؟ هل يحدثه في حكاية القبض على محمود وما قاله فتحى ابنه فى المحكمة؟ لابد أنه عرف على الأقل أبناء القبض على محمود. هل يحدثه عن خيبته البليغة؟ كان النادل قد أحضر الحساب فدفعه أمين واقفا، وتعجب جلال إذ ترك له ورقة بمائة دولار،

مقابل قدين من القهوة السادة. وطلب من النادل أن يحتفظ بالباقي:

كاد جلال أن يقوم فيحتضن أمينا ويدعه يبكى على صدره.

لم يفعل.

-4-

بعد يومين تحديدا، أمسك جلال "بالأهرام" ووجد نفسه يذهب إلى الصفحات قبل الأخيرة على غير عادته، فعلها قصدا، وقلبه تتزايد دقاته، وكأنه يقوده إلى ما يخشى، قبل أن يقرأ الأسماء واحدا واحدا عاد إلى الصفحة الأولى بسرعة، ووجد ما كان يبحث عنه فيها، فجزع وكره نفسه حين وجد ما أكد حدسه، اسم رجل الأعمال أمين عبد الحكيم نورالدين، وكيف مات إثر حادث أليم، وأنه لما كانت أعماله تسير بطريقة حديثة وعلمية وجماعية، فإن هذا لن يؤثر على شركاته، أو على البورصة، فى قليل أو كثير كما يتوقع الخبراء.

-5-

— هل ما زلت يا بسممة مصممة على كتابة الرواية الطويلة التى أشرت إليها؟

— لقد بدأتها فعلا، أنت صاحب الفضل فيها وقد أهديتها لك.

— اعملى معروفا أنا لست ناقصا سخرية.

— ما لك؟ ماذا بك؟ أنت متغير، أهو موت المرحوم أمين؟

— ليس هذا تماما، كلنا سنموت، هناك تعبير تعلمته من وردة لم أجد أرقى منه فى هذه الظروف،

لم أفهم أبدا تعبير "البقية فى حياتك"، وكأن حياتنا حساب فى بنك له بقية، قالت وردة بعد موت عبد المعطى "إنها ودیعة استردها صاحبها"، هى فعلا ودیعة یا بسممة ودیعة، الذى ما زال يحز فى نفسى هو مقابلته الأخيرة لى قبل الحادث.

— هل عرفت طبيعة الحادث؟

— أبدا.

— ولا أنا، فاتيما تؤكد أنه ليس انتحارا، وأنه قال لها إنه سمع منك عن جنوب سيناء، وأنه قرر أن

يذهب للاستجمام لمدة أسبوع مع أنه لم يذهب إلى هناك من قبل، وأنه قرر ألا يصحبها وتحجج بارتباطها بجلسات الإشعاع، أصر على أن يسافر بالعربة القديمة، وأن يقودها بنفسه مع أن عنده فريقا من السائقين، ومع ذلك هى واثقة أنه لم يفعلها، ليس هو الذى يفعل ذلك ...

— من أين لها كل هذا الحسم؟

— هى قالت ذلك، وأنا صدقتها، فضلت أن أصدقها، هى أيضا فضلت أن تصدق نفسها.

— من أين لك هذا الحسم

— لقد كان معى قبلها بيومين، وهو الذى طلب المقابلة .

— وماذا؟ لماذا كانت المقابلة؟

— لست أدرى، كل ما قاله لى هو أننى على حق، أى حق؟ ومن أنا؟ .. لم يزد، أشعر بمسئولية

مرعبة، لا أريد أن أتمادى فى معرفة مزيد من التفاصيل.

— وما ذنبك أنت فى هذا؟ هل ينبغى أن تكون على باطل حتى لا تشعر بالذنب؟

— لا أعرف.

— أنا قلت لك — أيضا — بعد حديثنا عن حادث الدكتور جميل النشترى أنك على حق، لست أنت

شخصيا، ولكن... أنت فاهم...، وقد استلهمتُ من هذا الحق روايتي التي أكتبها، يبدو أنني أكتب حتى لا أنتحر.

انتزها فرصة ليحول مجرى الحديث، لكنه وجد نفسه وسط المجرى ذاته.

— احذرى يا بسمة، هذه منطقة خطيرة، لا ينبغي أن تقتربي منها مهما كان الإغراء، ألا يكفي ما جرى لنجيب محفوظ، أراد أن يبسط الأمر للناس حتى يقرب إليهم تاريخ البشرية الملحمى الذى قاده مسيرة الأديان الرائعة، أراد أن ينظروا حولهم ليروا الله حتى لا يحشروه فى أدمغتهم حشرا كما يرسمه لهم الكهنة والمؤرخون، أو يضطرون لأخذ تأشيرة من السفارة السعودية حتى يلقوه، أراد أن يفسر لهم حبل الوريد الممتد عبر كل الأزمنة، فماذا كانت النتيجة؟ اعطى يا بسمة ودعى هذا الأمر لأصحابه.

— مَنْ أصحابه؟

— آه صحيح. مَنْ أصحابه؟

— لا تقفلها علينا، ماذا بقى لنا من أدوات نوصل بها رؤيتنا أو كشفنا حتى لو أخطأنا؟ إن من يراها ويكتمها لا يستأهلها. صدقنى:

أخذ يشرح لها كيف أنها تتقدم بخطى رائعة على مسار القصة القصيرة، وأنها يمكن أن تتجاوز المخزنجى، بل يوسف إدريس، وأن القصة القصيرة أكثر أمانا، وأن الإرهابيين والمتشجنين والسلطات ليسوا من الذكاء بحيث يلتقطون ما يكفرون به الناس ويقتلونهم من صفحة واحدة، أو بضع صفحات، وأن فرصتهم أكبر للتكفير والتقتيل هى فى الرواية الطويلة من خلال أى حوار عابر. صمت جلال فجأة، وود لو يشك فى كل ما رأى، فى كل ما ادعى أمين — رحمه الله — أنه على حق فيه، أهكذا؟!، هل ذهب أمين فعلا؟ لا لم يكن مثلهم، سعد نجمه مثلهم فى مجالهم، لكنه لم يكن مثلهم، شاركهم فى كل شئ، لكنه لم يكن مثلهم، من أول لحظة رآه فيها فى معرض السيارات، قال: هذا إنسان مختلف.

ليته لم يكن مختلفا عنهم،... ليته لم يكن مختلفا.

ليته كان مختلفا أكثر فأكثر. مختلفا أكثر مما فعل.

-6-

ذهب إلى هناك مثل كل زنقة، ما ذنبها هى؟ لا تراه إلّا حائرا أو خائبا، أحسن شئ أنها لا تدقق، لغتها خاصة، وحضورها أقوى من كلماتها.

— أهلا، لم تطل غيابك هذه المرة يا سعادة البك.

— اشتقت لكم أسرع.

— من القلب للقلب رسول، لكن مالك؟

— يعنى:

— والنبي لأنت قائل.

— كل مرة أتيك بشكل؟

— يا ألف مرحب.

— مات أمين عبد الحكيم.

— البقية فى حياتك، كلنا لها، لكل أجل كتاب، ما هو عبد المعطى مات، وأبو البنت مات، وكلنا

أموات يا سعادة الباشا. قريبك هو؟

— يعنى، معرفة.

— معرفة وتعمل عليه هكذا؟

— هكذا ماذا؟ هل ظاهر على؟

— طبعا ظاهر ونصف، لا بد أنك كنت تعزه جدا.

— كان صديقا، كان يبذو صديقا، كان يمكن ...

قاطعته:

— خلاص خلاص، لا والنبي الله يستر عرضك، ربنا يصبرك ويعوض عليك.

— هو الميت يتعوض، كيف يعوضنا الله، هل هي شركة تأمين يا وردة؟ هل عوضنا عن عبد

المعطى؟

— أستغفر الله العظيم، من كل ذنب عظيم، والله ما انا عارفة، صحيح.. لو كان يعوض كان قد

عوض في أبي البننت، من يدري "عليه العوض ومنه العوض"، أهو كلام.

— طيب ألا تريدين شيئا لك؟ للبننت؟

— ومستعجل على ماذا يا سعادة البك، ربنا لا يحرمننا منك ومن أفضالك، مستورة والحمد لله، أنت

لم تعد غريبا.

-7-

لا يعرف كيف سيقابلها.

سأل عنها المرة تلو المرة حتى يعزيها، بعد أن عجز عن الاتصال بها في الأيام الأولى من

الحادث. هو لم يسأل عن مكان سقوط السيارة، خاف أن يعرفه فيخاصم الجبال التي تخلت عن صديقه،

كيف لم تعرف أن أمينا كان صديقه جدا، كان على الجبال أن تحول دون أن تنقلب سيارة صديقه هذا

هكذا، هو لم يخطر بها بما كان بينهما بسيطا عميقا، لكنه كان ينتظر منها أن تعرف وحدها، هو لا يعلم

أى جبل هو الذى تخلى عن أمين، كلهم أصدقاؤه لماذا خانوا صديقه ألم يعرفوا أنه منا، أنه معنا، لماذا

تركوه يهوى حتى لو كان قد قرر ذلك؟ أى واد هو الذى ناداه، أى منحدر نذل جذبته إليه عنوة، يتذكر

منظر السيارات التي رآها فى المنحنى الخطر نزولا إلى نوبيع من سانت كاترين، منحنى خطر،

منحنى شديد الخطورة، لا تطفئ المحرك، لا تتخط السيارة التي أمامك، ماذا فعلت يا أمين؟ هل تخلى

عنك حضن الجبل إلى هوة الوادى، للجبال عباءة حانية، الوادى نذل بلا قرار، كل ما أرجوه أن تكون

احتوتك الجبال وأنت تتهادى وسطها بقرار حرمننا منك كما حرمتك تماما.

فى الوديان السحيقة نداء صامت كم استمعت إليه وأنا أتبادل القيادة أحيانا مع أنور فى عربته

الصغيرة ذات القفا العريض لأريحه بعض الوقت، هناك نداء لحوح للأرض يعرفه كل من يخاف أو

يحب بحق، حين تتادينا الأرض بهذا الإلاح لا ينقذنا إلا أن نحسن الإنصات إلى من يحبنا أكثر،

أرجو أن تكون الجبال قد لحقتك حتى لا تهوى فى غدر الوديان النذل يا أمين؟ يارب تكون قد فعلت.

— أهلا جلال.

— أسف لما حدث، ثم أسف لتأخرى عن واجب العزاء.

لم ترد فاتيما على أسفه، ولا على عزائه؛ ربما قصدا، لكن وجهها السطح، كما كان دائما رد

بسماحة أكبر، أين الحزن؟ هذه المرأة عجيبة الشأن، من أين كل هذا السلام؟ مازال يذكر لقاءه معها

فى المطعم الصينى للمرة الثانية، وهى فى عز أزمة المرض، وهى متماسكة كل التماسك حتى دمعت

عيניהما فى صمت جميل لم يخل من تسبيح مجهول، كلُّ بلغته، الحزن شئ عظيم، الفقد أمر آخر،

الجزع من المرض أو بسبب المرض أو من الموت شئ، والحزن على فقد شخص مثل أمين شئ آخر.

راح يعيد لنفسه: لماذا لم يكن أمين مثل أصحاب معارض السيارات، ولا أصحاب مصانع

السيارات ولا أصحاب القرى السياحية ولا مثل أصحاب المجمعات السكنية، ولا مثل أصحاب شركات

الدواء، ولا مثل....

توقف جلال فجأة، لأنه لم يستطع أن يفكر فى أمين بلفظ "كان" فى الماضى، وأيضا لأنه لا يعرف

كيف هم كل هؤلاء حتى يقول إن أمينا كان مثلهم أو لم يكن مثلهم.

— لقد انتهزت فرصة تباعد جلسات الأشعة، وسافرت إلى أبى سمبل كما قلت لك.

— حمدا لله على السلامة.

— وقد وجدتها كما تصورت، وأروع.

— وكيف حال الأولاد؟

— بخير، تقبلوا الأمر بجزع، ثم قامت الأيام بالواجب، رشا ما زالت تعاني أكثر، لم أكن أعرف

أنها كانت تحبه كل هذا الحب.

— أنا كنت أعرف.

— من أين عرفت؟

— حين عرفت أمينا (لم يقل المرحوم، لم يستطع أن يقولها) فى ظروف أخرى غير محل عمله

وغير مشروع التدريس، وغير بلاد الشمال الباردة؛ حيث رحلت، حين عرفته وجها لوجه، تيقنت أن رشا تحبه حبا شديدا.

— هو الذى قال لك هذا؟

— وهل هذا كلام يقال؟

كاد يقول لها لماذا لم تحببه بالقدر الكافى يا فاتيما؟ لم يفعل، ولكنه استطرد!

— هل تعرفين يا فاتيما أنه كان رجلا طيبا؟

— جدا.

— وهل تعرفين أنه كان صديقى سرا؟

— لست...

سكنت فاتيما فجأة فقد أجهش جلال بالبكاء.

حاول أن يحول دون ذلك، كان بكاء بصوت، هذه المرة، كان نشيجا أفحمه وملاه خجلا، يريد أن

يعدو، أن يختبئ، كان قد قرر ألا يفعلها ثانية أمام أحد، لم يكن بينه وبين أمين ما يستدعى أيا من هذا، مقابلتان .. ثلاث .. سبع، وبعض المجاملات، وانشغالات دائمة، وتمنيات طيبة، كل ذلك على مسافة،

نقل كلما افترقا وتتضح عند كل لقاء أو مكالمة.

— هل كنت .. أقصد كنتما ..، آسفة....

تمالك جلال نفسه بسرعة مناسبة، حتى بدا أن دموعه أيضا تجف بذات السرعة.

— أنا آسف، المفروض أننى حضرت لأواسيك لا لتواسينى، أنا آسف جدا، وخجلان أيضا، يا ليته

ما قابلنى قبلها، لقد قال لى: ... ولكن لا معنى لأى شئ الآن.

قالت فاتيما بعد تردد:

— إن كان هذا يريحك، يريحنا، فله فالموقف لا يحتمل مثل هذا التحفظ.

— قال لى إنه صدقتى، وإننى على حق، على الرغم من أننى لم أصدق نفسى حتى الآن، كيف

أكون على حق وأنا ما زلت هكذا؟

— هكذا ماذا يا جلال؟ أنت صاحب قضية.

— أنا؟ أية قضية؟

— قضية ليس لها اسم، هى التى وراء كل شئ، أنت تعرف. ما لزوم الكلام!

— صحيح ما لزوم الكلام.

ساد الصمت بناء على ذلك، وطال حتى أخرجت فاتيما من جيبها صورة وقدمتها لجلال؛ يبدو

لتقطع الصمت، كانت تبدو فيها مثلما رآها أول مرة، سحابة ترق لتظهر أجمل ما وراءها، رفع رأسه إليها فإذا هى هى التى فى الصورة، كيف نسى انبهاره المتصل بهذا الجمال شديد التميز بين الشمال

والجنوب؟ ما هذا؟ هل هذا وقته؟

— لكن من هذا الذى تحمليه بين يديك؟

لاحظ أنها تضم إلى صدرها فى الصورة طفلا أسمر شديد السمرة حتى السواد، يكاد يكون عاريا،

التناقض بين بياضها الذى استعاد حمرة بعد العلاجات الأخيرة، وبين سواد الرضيع العارى اللامع سطوعا أظهر الملامح الأجمل لكليهما، و لما تريد فاتيما أن تقوله.

حكى له فاتيما كيف أنها اتصلت بعد وصولها بصديق قديم لزوجها، كانت له علاقة وثيقة به؛ لأسباب لا تتعلق بالعمل، لم تسأل عن أصل العلاقة، على الرغم من أن أمينا ألمح إلى أنها علاقة قديمة أعمق من أن تكون عائلية. قالت لجلال إنها سألت عليه فى قهوة البوسطة بعد وصولها أسوان، وإنه عزمها فى منزله، وعرفها بزوجته النوبية، كان تأثر هذا الصديق النوبى الجميل، وتأثر زوجته بموت أمين أكثر مما تتصور، أمين لم يحك عنهما أبدا إلا حين أخبرته أنها ذاهبة إلى "أبو سمبل" فأعطاهما عنوانه الذى لم يكن يعرف إلا أنه "قهوة البوسطة"، تعجبت فى البداية كيف يكون عنوان شخص هو "مقهى عام"، ثم تذكرت أنها فى مصر، وبلغ من كرم هذا الصديق النوبى وعائلته، أن أصرت زوجته على أن تصحبها شخصيا دون دليل إلى "أبو سمبل" فهى تحفظ كل ما تريد فاتيما أن تعرفه، وتستطيع أن تحكيه بطريقتها الخاصة، هذا على الرغم من أنها كانت فى شهرها التاسع وعلى وشك الوضع، ثم إنها جاءها المخاض فى "أبو سمبل"، ولم تحتج إلا لمساعدة بسيطة جدا من صديقة عجوز كانت تنتظرهما هناك.

— تصور يا جلال، على الرغم من كل الأسى والفقد والمرض والأحزان، لم أكن أتصور أن الأطفال مازالوا يولدون، وأنهم مازالوا بكل هذا الجمال.
أخذ جلال يتأمل شدة سواد المولود وشدة بياض حاملته، وهو يبلى ريقه، وكأنه يتذوق الحياة من جديد، حتى استطاع أن يضحك معا فى صمت مفعم بالألم.

-8-

- أقول لك شيئا؟
- قولى يا وردة.
- أنت لا تسمع كلامى:
- يا وردة، يا وردة، أنا لم أصرح لك إلا لأنك صديقة.
- صديقة يعنى ماذا؟
- يعنى وردة، أحضر لك كلما.. كلما.... أنت تعرفين.
- أعرف، ولكن ما فائدة أن أعرف، وأنت لا تسمع الكلام.
- يعنى أنت التى تسمعين الكلام؟
- وهل أنت قلت لى شيئا ولم أسمعه؟
- وهل أعطيتنى فرصة؟ قبل أن أسمع أنك تزوجت، كنت قد طلقت.
- قلت لك لم يكن رجلا، كان ثورا، أما هى، فهى شئ آخر.
- أنت.... إيش عرفك بها؟
- أنت تحبها وهى تحبك.
- أنا أحب ناسا كثيرة، نساء ورجالا وأطفالا، هل أتزوجهم كلهم؟
- وهى؟ ألا تحب الناس مثلك؟
- هى أيضا تقول أنها تحب الناس، وأنت يا وردة.
- أنا أحب النبى:

قالت ذلك، وضحكت ضحكة أخرى عالية، لكنها ليست بذات الاتساع.

-9-

- هه، يا منال.
- هه يا جلال.
- إذن ماذا؟

- إذن هذا؟
– الله يخيبك!
– الله يخرّب بيتك.
– نعملها؟
– لا طبعاً.
– نبقي هكذا؟
– لا .. طبعاً.
– يعنى؟؟.
– يعنى موافقة.
– على ماذا؟
– على الممكن المستحيل.!!!
– والله ما هي نافعة!!
– أحسن.
– فلماذا نستمر نحاول؟
– هل عندك بديل؟
[تمت]

دهب: 7 / 2 / 2004

إرتباط كامل النص:

www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD260818.pdf

*** **

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقياً بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

شحن: إنجازات أربعة عشرة عاماً من الكدح "

(التأسيس العام 2000 الاطلاق على الويب العام 2003)

الكتاب السنوي الخامس

تحميل الكتاب

- التحميل من موقع " شبكة العلوم النفسية العربية "

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>

اشترائكم - اذاتكم - في اصدارات الشبكة

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=36&controller=category&id_lang=3

خدمات الاعلان بالمتجر الإلكتروني

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=39&controller=category&id_lang=3